

أتبرر الغاية الواسطة؟

"والتفت بولس إلى الروح في العرافة وقال أمرَكَ أن تخرج منها"

يدخل بولس مع لوقا ورفقتهم إلى مدينة فيلبّي وهم يبشرون بالربّ يسوع. "فطفقتُ امرأةً ساحرةً تمشي في إثرهم وتصيح قائلة: هؤلاء الرجال هم عبيد الله العليّ وهم يبشرونكم بطريق الخلاص". فتضجّر بولس والتفت إلى الروح الشيطانيّ في الساحرة وانتهره ليخرج منها! تساؤلان يخرجان إلينا من هذا الحدث الغريب! أولاً كيف تنادي الساحرة وكذلك الروح الشيطانيّ الذي فيها يمثل هذه المجاهرة: "هؤلاء رجال الله..."، ولم يكن الشيطان يخشى ويكره شيئاً كانتشار اسم يسوع المسيح؟ وثانياً لماذا طرد بولس هذا الروح الشرير رغم أنّه كان، كما يبدو للوهلة الأولى، يساعد في عمل البشارة؟

"حبائل الشيطان" عبارة تشير إليها بوضوح نصوصنا الإنجيليّة، ويشدّد على احترازها أدبنا المسيحيّ وخاصّة النسكيّ. الأكيد أنّ الشيطان لا يحبّ اسم يسوع ولا يرغب بالخير. ولكن من الواضح أنّه يبرّر بالغاية الواسطة. فهو (الشيطان) مستعدّ لينادي بيسوع لحين، إلى أن يأتّمه الرسل ويأتمنوا هذه العرافة، حينها يطبق الفخّ عليهم! هكذا يشرح الذهبيّ الفمّ هذا الحدث. حاول الشيطان أن يحتال الرسل من "اليمين"، بتقديم طعم مفيد، كما يبدو في البداية، ليستطيع في النهاية اصطيادهم.

لم تكن هذه العرافة الساحرة مُحبّة للرسل ولا لاسم يسوع، ولكنّها كانت تودّ أن يقترب الرسل منها وتقترب منهم لتنال من بشارتهم فيما بعد ما تستطيع! نعم الشيطان يبرّر الواسطة العكسيّة لبلوغ الغاية الإيجابيّة (له). هذه الحبائل الشيطانيّة أو "الوسائل" التي تبقى في النهاية عكس ما تظهره هي طريقة شيطانيّة!

يعطي الشيطان طعماً من الخير ليصطاد كلّ الإنسان إلى الشرّ. "إنّه كذاب وأبو الكذب" كما يسمّيه يسوع.

تبرير الوسيلة بالغاية، هو فنّ شيطانيّ. يلجأ البعض إلى القيام بأعمال حسنة رياءً للوصول إلى غايات سلبية؛ والأسوأ من ذلك حين يلجأ آخرون إلى استخدام وسائل سيئة غير مسيحية، مسكّنين صوت الضمير وناكسين بعهود المعمودية ودائسين الوصايا الإلهية، لكنهم يتذرّعون بأنّ الغاية جيّدة! فقد يلجأ البعض إلى السحر والتنجيم وقراءة الفنجان وإلى العرافة وإلى "كتابة الحجب" وإلى العديد والعديد من الوسائط، والتي نسميها سخيّفةً أو شريرةً أيضاً، ولكن لماذا وما المانع ما دام مثلاً محتوى الحجاب جيّد أو ما نريد معرفته أو فعله بالسحر "مفيد لنا"؟ وصور أخرى على سبيل المثال هي: بناء السلام في عالمنا عن طريق الحروب، أو تربية الأولاد بالقساوة، أو طلب المحبة بالعنف! إنّ ربّنا لم يطلب تحقيق خير الإنسان، أي إرادته الإلهية، بالعنف ولا على حساب الإنسان! إنّ الله يدبّر الأمور دائماً بالوسائط السليمة من أجل غاياتها السليمة. لا نصل إلى الحقّ بوسائل الباطل! ولا تبرّر "غايةً سليمة" تصرفاً غير سليم. الحقُّ يُبنى بالحقِّ وثمرته الصليب، والأمانة تتطلّب شهادة ثمنها عظيم. هذا ما حصل مع بولس بالنهاية، لقد قام أهل المدينة عليه وعلى الرّسل الذين معه فضربوهم كثيراً بالعصي وألقوهم في السجن. يفكّر بعض المسيحيّين خطأ أنّ سلوك درويّ معوجّه ممكنٌ للوصول إلى غاياتنا! أمّا الكتاب المقدّس فيأبى أن نمدّ أيدينا إلى الكذب والمآثم متعلّلين بتحقيق مآرب نسميها غايات سليمة!

التفت بولس إلى الروح الشريرة في العرافة وطرده! نعم لتسقط حتّى البشارة باسم يسوع إذا كانت من فم الشيطان. شرّير لا يأخذنا إلى الخير مهما اخترع من حباثل. هذا التأمّل بالتساؤلين، كيف يبشّر شيطانٌ بيسوع وكيف يطرد بولسُ شيطاناً يبشّر بيسوع، يمسّ بالعمق ممارسات يومية لنا نحن المسيحيّين، حين نبرّر بعض "الخبائث" في سبيل "الغاية الشريفة" (كما نظّنها). لن تعود الغاية شريفةً حين يكون ثمنها رخيصةً أو شرّيراً.

لا واسطة للغاية السليمة إلّا الواسطة السليمة. لا تبرّر الغايات الوسائط، فلا ينفع سلمٌ نطلبه بالعنف، ولا حقٌّ نقيمه بالكذب، ولا نتيجة نحققها بالرياء! يجب أن ندفع ثمن الحقيقة مهما بلغ ثمنها، وعلينا ألاّ نسعى لغاية عن غير طريقها وطبيعتها.

معيار الخير والشرّ ليس "تحقيق" أمر خير أو شرّير (للهولة الأولى). المعيار هو أن نكون مع الربّ أو عليه. المعيار أن نحيا بالفضائل، ولو لم ننجح بتحقيق بعض غاياتنا الصالحة، نحن أبناء الملكوت لا نتعامل بطرق أعدائه.

تلك العرّافة كانت تصرخ: هؤلاء رجال الله، وبولس صرخ: "أمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج!"
الصدق يحقّق بالصدق، والكذب مهنة شيطانيّة. كلّ أداة أو طريقة أو مسلك يُبنى على الكذب قد يحقّق
"ربحاً" لكنّه يخرجنا من ملكوت السيّد الصادق والأمين ليجعلنا شركاء ملكوت الشيطان، وهذه أفضع
"خسارة"! فثبّتنا يا سيّد في ملكوتك، آمين.